من خبر الرحلة الدمشقية

(نُشر في الجزيرة الثقافية في شهر ربيع الأول وربيع الآخر ١٤٤٧هـ)

في منتصف سنة ١٤١٠ (١٩٩٠) سجّلت موضوعًا لنيل درجة التخصص (الماجستير) بعنوان (شفيق جبري، حياته وأدبه)، في كلية اللغة العربية بالرياض.

ولما شرعتُ في الموضوع وجمعت ما تيسر من نتاج الأديب، هفَتْ نفسي إلى زيارة سورية، للمرور بمجمع اللغة العربية في دمشق، إذْ كان جبري رحمه الله (ت١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، عضوًا فيه، وقدّرتُ أني واجدٌ ما يفيدني في دراسة حياته وأدبه، وطمعتُ أيضًا في أن تتيح لي الزيارة لُقيا نفرٍ من العلماء والأدباء.

قبل الرحلة بنحو شهر أُقيم في الرياض مؤتمر علمي، شارك فيه نائب رئيس المجمع آنذاك الدكتور شاكر الفحّام، رحمه الله (ت ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م)، فسعيتُ إلى لقائه، في بهو فندق (ماريوت)، وقعدتُ معه قعدة موجزة، أبنتُ له فيها موضوعي، وحاجتي إلى مراجعة أضابير المجمع والبحث عن نتاج جبري غير المنشور في كتبه، وأنبأته أني عازمٌ على زيارة الشام، فرحّب، وأعطاني رقمه، وطلب إليّ أن أهتف به إذا بلغتُ دمشق.

هو (شاكرٌ)، فتفاءلتُ باسمه، وقدّرتُ أني لاقٍ ما يستحقّ أن يُشكر، وذلك ما كان.

وفي مطلع ذي الحجة من سنة ١٤١٢هـ (حَزيران ١٩٩٢)، حطّ بي طائرُ الشوقِ في دمشق، فاكتريت غرفة، في فندق (الفراديس) في ساحة المَرْجة، وهي ليست بعيدة عن سوق الحَمِيدية، والجامع الأموي، وهما من معالم الشام التي لا بدّ من زيارتها. وكان إلى جوار الفندق مبنًى لوزارة الداخلية؛ ولذلك كان مرآى الجند في الساحة وفي الأزقة المجاورة أمرًا معتادًا.

وكنت حملتُ معي رِزمة مالٍ، إذ لم تكن البطائق المصرفيّة منتشرة، ولم يكن العمل بها شائعًا، وكان مجموع ما حملتُ ثلاثة آلاف ريال، استبدلتُ بها الليرة السورية فجاءت في نحو ثلاثين ألفًا. وكَفَتني ولمّا، إذْ ذهب آخر مئة ليرة في حوزتي قيمةً لرسمِ المغادرة! وركبتُ الطائرة إلى الرياض صفرًا خالي اليدين (ما في يدي من فاقةٍ إلا يدي).

كان وصولي إلى (الفراديس) قُبيل صلاة الظهر، فأمضيت العشيّةَ أتسكّع في الجوار، وأتدسّسُ في الشوارع والأزقّة، حتى بلغت الجامع الأموي، فصلّيت فيه العصر، ولم يكن الصف الأول

مكتملًا على ضخامة الجامع وكثرة المحالّ حوله، ومجاورة سوق الحميدية إياه. ثم قفلتُ راجعًا بالحدسِ والسؤال، أتمشّى متمهّلًا، حتى بلغت الفندق.

وفي صباح اليوم التالي هتفتُ بالرقم الذي أعطاني إياه الدكتور شاكر الفحام، وحدثتُه مذكّرًا إياه نفسي، فرحّب كثيرًا، وقال: إنه سيبعث سائق المجمع للمرور بي، وحَمْلي إلى المجمع! (أيُّ كرمٍ قوبِلتُ به!) وكان ذلك، إذْ جاءني سائق اسمه (محمد موفّق) كهل لطيف المعشر، نزرُ الكلام، تفاءلتُ باسمه أيضًا، وقلتُ في نفسي: (جاءكَ التوفيق يا فتى).

ذهبت مع السائق إلى مبنى المجمع في (حي المالكي)، فقعدت مع الفحام قعدة لم تتجاوز الساعة، سعدتُ فيها بروحه الطيّبة، وحديثه الشائق، وعلمه الغزير، مع أنه كان كثير القيام والقعود، لا يكاد يستقرّ على كرسيّه، ثم أحالني إلى موظفة المكتبة، فدلّتني على بعض الملفات وأطلعتني عليها، وصوّرت بعض الأوراق، ثم قالت: إن الدكتور شاكرًا يدعوك إلى مكتبه مرةً أخرى، فلما عدتُ إليه قال: أخبرتُ أمين المجمع بأمرك، وهو في انتظارك فلعلك تفيد منه شيئًا.

ذهبتُ إلى أمين المجمع الدكتور عدنان الخطيب رحمه الله (ت ١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، وكان ثقيل السمع هرِمًا، فلم أستفِد منه سوى النزْر. سألتُه عن قصائد لجبري محفوظة في بعض أضابير المجمع، ولم تنشر في ديوانه (نوح العندليب)، فأخبرني ألّا سبيلَ إليها، وأنه لا يُسمح بنشرها لأسباب سياسية!

وكان من حسن خلُق الدكتور شاكر الفحام، ومروءتِه أنْ حرَص على إفادتي كلَّ الحرص، فأحالني إلى صحفيّ أديب دمشقي، وأوصاه بي خيرًا، وكلمه بالهاتف وأنا عنده، وسمعتُه يقول له عني: (هذا شاب صغير ولكنه ذو همّة عالية)، وفهمتُ أن الجملة الثانية لدفع عزيمتي ومجاملتي ليس غير، ثم التفتَ إليّ بعد إنهاء الاتصال، وقال وخفض صوتَه كأنه يوشوشني بسرٍّ: (هاد مسيحي، أوعى تحكي شِي هيك ولا هيك)، وذلك تنبيه مهمّ؛ لئلا تفرُط مني كلمة لا أقدُرُها قَدرَها، ولعله قال في نفسه: هذا نجدي (سلفيّ) لا تُؤمنُ بدَواتُه. والحقُّ أنه لم يَحِكْ في صدري شيءٌ من هذه المسائل، فأنا باحثٌ عن (الحكمة)، متشبّثٌ بها أنّى وجدتها، وما أنا بخوّاضٍ في أمور الدين والمذاهب.

ولم يكن هذا هو اللقاء الفريد بالفحّام، إذْ زرته كرّة أخرى في مكتب (الموسوعة العربية)، ولقيت عنده الدكتور إحسان النُّصّ (ت١٤٣٣هـ/٢٠١٢م)، وللفأل موضعٌ آخرُ هنا، فالرجل (إحسان).

تجاذب الرجلان أطراف حديث علمي أدبي، وبقِيتُ مستمعًا إلّا بكُليمةٍ مرةً وجملةٍ حيِيّةٍ مرةً أخرى. عرَضا للواقع الأدبي، ولقصائد شعراء الشام في الأحداث والوقائع، فأفدتُ منهما ما نبّهني إلى مظانّ أدب شفيق جبري، وكنتُ أدرسُ شعره ونثرَه معًا.

ثم إني ذهبت إلى ذلك الأديب الذي أوصاه شاكرٌ بي، وهو عيسى فتوح الذي كان موظّفًا في نقابة المعلمين، وقد أعاد اسمه إليّ الفأل مرة جديدة، ففَتّوح من الفتْح، وهل جئتُ إلى دمشقَ إلا لفُتُوح من العلم والأدب؟

حدّثتُه عن موضوعي، فأفاد بأن عنده بعض كتب لجبري، وعنه، وأنه سيبيعني إياها، فشكرت له، واتّعدت وإياه عشيّ ذلك اليوم، فلما التقينا عند محطّة الحجاز، أخرج بعض الكتب من صندوق سيارته، فاشتريتها بثمن غير بخس، ولكني استرخصتها لأني في حاجة إليها، ومنها كتاب جبري (أرضُ السِّحْر) الذي قيّد فيه وقائع رحلته إلى أمريكا في الخمسينيات، وهو نادر الوجود بأيدي الناس (طُبع سنة ١٩٦٢)، وكتابٌ لفتّوح نفسه عن بعض أدباء الشام وفيهم جبري، اسمه (شموع في الضباب).

ومن حسن أخلاق أدباء الشام ومثقفيها أن كلّ واحد منهم، لا يَدَعُني حتى يدلّني على آخر؛ ومن أجل ذلك، خرجت من عند شاكر الفحام، إلى عدنان الخطيب ثم إلى عيسى فتوح، ومنه إلى الدكتور عادل الفريجات الذي تجلّى لي في اسمه (فُريجات) الفألُ بالفرج ونُجح المسعى، وحصول الطِلْبة.

كان فُريجات ينوي تقديم أطروحة عن جبري، ثم عدل عنها، وسجّل حوارًا معه في لقاء صحفي، وأعطاني نسخة منه، وآثَرني بأوراق جمعها ومعلومات احتجنها إبّان عزْمته الأولى، ودلّني على مراجع مفيدة، فانعقدت بيننا صداقة استمرت حتى يومنا هذا، فقد زرته بعد ذلك التاريخ بنحو عشرين سنة وتهادينا الكتب. وفي هذه الرحلة ألحّ عليّ أن أتغدّى في بيته في حي القصّاع، فزرتُه أنا والسائق الذي اكتريتُ سيارته مُياومةً (أي بأجرة يومية)، وطعِمنا عنده غداء دمشقيًّا لذيذًا.

ثم إن عيسى فتّوح عرّفني بأديبين آخرين هما إسكندر نعمة القاصّ، ويوسف عبدالأحد الصحفي صاحب مكتبة (العائلة) التي زرتها معهم، ووجدتُ فيها بعض ما يفيدني في البحث. ثم قال فتّوح: لا بدّ من أعرّفك بأديب له علاقة بجبري، وهو الأستاذ عبدالغني العِطْري (ت ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م)! يا لهذه الأسماء التي تنفحني فألًا! (غنِيٌّ وعطريّ) أيُّ فألٍ لطيف في هذين الاسمين!

اتّعدتُ وفتوحًا وفريحات على زيارة العطري في مكتبه، وهو أديب صحافي كان يصدر (جريدة الصباح) و(مجلة الدنيا) وعنده سِجِلّ بأعداد المجلتين، ولا سيما (الدنيا) التي استمر صدورها نحو أربعة عشر عامًا، وفيها مقالات لجبري، فجئنا إليه في مبنى قديم متاخمٍ لساحة المرْجة، فشربنا عنده القهوة، وأدرنا أحاديث الأدب والفكر، واستخبرني عن قدومي إلى دمشق، ثم سأل: هل زرتَ الأستاذ مدحتْ عكّاش؟

قلت: لا أعرفه، وبادر فتوح قائلًا: هو ضمن برنامج الزيارات، فقال العطري: سأصحبكم إليه غدًا، فاتّعدنا على ذلك، وقبل أن أغادر مكتبه أهداني كتابَه (عبقريات شامية) وفيه مقالٌ عن جبري، وكتابَه الطريف (أدبنا الضاحك) وهو من كتب المسامرة لما فيه من اختيارات لطيفة من التراث البعيد والتراث القريب.

وفي الغد شُغِل الرجلان، فذهبتُ بصحبة السائقِ إلى مبنى مجلة الثقافة، بُعيد العصر، عند مدحت عكّاش (ت١٤٣١/٢٠١١)، وكان أصدر مجلته هذه سنة ١٩٥٨ وظلّت تصدر حتى يومنا الذي لقيناه فيه، ولكنها كانت رديئةَ الإخراج، قليلة الانتشار، ثم ماتتْ قبل وفاته ببضع سنوات، وبعد أن عدت إلى الرياض نشرتُ فيها بضع مقطوعات شعرية.

استقبلنا عكّاش رحمه الله في بيت عربي في وسطه (أرض الديار)، تتوسطه بَحْرة، والشُّجَيرات تحوطه من كل ناحية، وإذا هو قاعد ومعه بضعة رجال ونساء، فعرّفته نفسي وغايتي من الزَّوْرة، فرحّب، وحدّثني عن جبري، وأهداني نسخة من العدد الذي صدر عنه، وأفادني فائدة عظيمة حين أخبرني أن لشفيق جبري شقيقًا اسمه رؤوف يكتب عنده في المجلة، وهو يقطنُ بُلودان، وقال: إنه لا بدّ لك من لقائِه.

ثم رفع سماعة الهاتف، وهتَف برؤوف جبري في بُلودان مرارًا، فلم يعلَق (الخطّ)، لسوء شبكة الاتصالات، فشكرت له جهده وحرصه، وقلت: إني سأذهب إليه فإن لقيته فبها، وإلا فمُبلغُ

نفسٍ عُذرَها مثلُ مُنجِحٍ، قال: إن لم تجده فرحلتك سياحة على كلّ حال، وبلودان مصيف رائع، وأردف: هي بلدة صغيرة، وسوف تجد من يدلّك على بيته.

ومن الغد حزمت أمري، وخرجت مع السائق إلى بلودان ضُحًى، فمررنا بسهل الزبداني الأخضر، ورؤيته تسرّ الناظرين، وفي الطريق وقفنا بنهر بردى، وكان الماء باردًا؛ لأنه حديث عهد بالشتاء وثلجه. وما أعجلَ أن خطرت في ذهني قصيدة حسان التي منها:

يَسْقُون من وردَ البَرِيصَ عليهمُ
بَرَدى يصفّقُ بالرحيقِ السلسلِ

ودندنتُ بقول شوقي:

جرى وصفّق يلقانا بها بَرَدَى
كما تلقّاك دونَ الخُلدِ رضوانُ

وفي جولتي بدمشق وأريافها كانت تشخصُ في ذهني أبيات أحفظها عن دمشق وطيب هوائها وجمال طبيعتها، وكان أن رأيت في الغوطة –وهي إحدى جنان الدنيا الأربع عند القدماء– شجرَ الحُور فتمثلتُ قولَ شوقي مدرِكًا براعةَ التشبيه:

والحُورُ في دُمّرٍ أو حول غُوطتِها
حورٌ كواشفُ عن ساقٍ وولْدانُ

ولما جُلنا عشيّة العيد في (دارَيّا) وهي من أرياف دمشق، نهضَ قُبالتي قول البحتري:

العيشُ في ليلِ دارَيّا إذا بردا
والراح نمزجها بالماء من بَرَدى
أما دمشقُ فقد أبدتْ محاسنَها
وقد وفَى لك مُطْرِيها بما وعدا
إذا أردتَ ملأتَ العينَ من بلدٍ
مستحسَنٍ وزمانٍ يشبهُ البلدا

وهذا يملأ النفسَ ويُروي الشعور أن تمرّ بالأماكن التي ذكرها الشعراء وتغنّوا بها؛ لأنك حينئذ تُمتِع عينَك وقلبك معًا، وهذا ما أستحضره أحيانًا وأنا أمرّ بالأماكن المشهورة في الجزيرة العربية، مما شاع في الشعر وتغنى به الشعراء والأدباء.

لما بلغنا بلودان، وقفنا عند دُكّانِ حدّاد في أول البلدة، في شارع مُصعِد، فسألتُه: هل تعرفُ منزل رؤوف جبري؟ فأشار إلى أعلى الدرب المنحدر، وقال: إنه على يمينك إذا بلغتَ نهاية الشارع، فانطلقنا مُصْعِدَين، وقبل أن ننعطف إلى اليمين، إذا أربعةُ رهطٍ من رجال مُسِنّين يتحدثون وقوفًا، فسألهم السائق: أين بيتُ رؤوف جبري؟ فقالوا مشيرين إلى رجل واقف معهم: (ليكو)، أي (ها هو ذا)، يا للعجب! والله لكأنما خرج من بيته ووقف ينتظرني!

كان ذلك من حسن صنيع الله بي، وتيسيره، إذ لم أكن أقدّر أني بالغٌ حاجتي بهذا اليُسر، ﴿ولَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيْعَادِ﴾، وما أكثر ما صحبَني الفأل في أسماء من لقيتُ في هذه الرحلة! وهذا آخرهم (رؤوف) المشتق من الرأفة، واسم عائلته (جبري) فكان لي من ذلك رأفة وجبْر، والحمد لله.

ترجّلت عن السيارة وصافحت الرجال، وخصَصْتُ رؤوفًا بسلام وكلام، وأفضيتُ إليه بخبري، فرحّب ودعاني إلى بيته على بُعد خُطَيّات.

كان رؤوف جبري رَبْعة ممتلئ الجسم، أمْيلَ إلى القِصَر، يلبس نظّارة سميكة، ويمشي به العكّازُ غيرَ متثاقلٍ، وقدّرت أنه خنقَ الثمانين، وكان مرحّبًا محتفيًا، إذْ ضيّفني أنا والسائق، وقعدت عنده نحو ثلاث ساعات، وفي أثناء حديثي معه، أحضر نسخًا قديمة من مجلات وصحف كان أخوه شفيق نشر فيها بعض مقالاته وقصائده، فاستعرضتها ونسخت منها ما لم يُنشر في كتبه، لأنه لم يكن في بُلودان آلة تصوير، والذهاب بها معي إلى الشام شاقٌّ، ونفس رؤوف على ما بدا، شحّتْ بأن آخذ شيئًا معي، وقد عذرتُه، فإني غريب لا يُدرَى ماذا أخبّئ، وليس من الحكمة أن يستودعني تراثَ أخيه، وبعضه في أوراق عتاق، وصحف ومجلات أكل الزمان أطرافها وصفّر أحشاءَها.

وجرّتنا الأحاديث إلى أسرة جبري، وإخوانه، فأخبرني أنه هو وشفيقًا وأخاهم ممدوحًا لم يتزوجوا! ولم أشأ سؤاله عن السبب خشية الحرج، ولكني قيّدت المعلومة الغريبة وأفدت منها في تحليل شخصية شفيق. على أني قرأتُ من قبلُ لشفيق نفسه أنه كاد يتزوج، ثم بدا له أن الفتاة كانت طامعةً في ماله، قال: (فمَلَصتُ وتركتها) هكذا عبّرَ رحمه الله.

ثم غادرتُ رؤوفًا شاكرًا، ووعدته نسخةً من الرسالة إذا طبعتُها، ووقع ذلك بعد نحو سنتين، إذ بعثت إليه بنسخة من كتابي (رجلُ الصناعتين شفيق جبري)، ولما قرأه، أرسل إليّ يشكر لي ويقدّر عملي، ويبالغ في الثناءِ عليّ؛ إذْ كان مشغوفًا بأن يقرأ ما يُكتب عن أخيه، غير أنه عاتبني

على أني اجتهدت فقلت: "إن جدّ أسرة جبري كان في غالب الظنّ درزيًّا، وإن كانت الأسرةُ مسلمةً سُنّية؛ مستدلًّا بأن جدَّهم ذاك وهو يوسف آغا جبري لما هرب من دمشق إبان حملة أبي الذهب على الشام في القرن الثاني عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) لجأ إلى جبل الدروز، ثم رجع ومعه خمسة آلاف منهم". وقال رؤوف: إنه يعتزّ بالدروز، ولكنّ أسرته مسلمة سنّية.

وذلك رأي علمي لا يغضّ من شأن تلك الأسرة الكريمة، ومع ذلك وعدته، تطييبًا لخاطره، حذفَ هذه المسألة إذا طُبع الكتاب مرةً أخرى. وكان آخرَ العهد برؤوف رحمه الله رسالةٌ بعثها إليّ بعد صدور الكتاب بسنة يطلبُ فيها نسخًا منه، ويهديني كتبًا له في التربية.

وفي هذه الزيارة عرّجت على مواقع سياحية، وآثار قديمة، أشهرها الجامع الأموي الذي صلّيت فيه بضع صلوات، وتنَشّقتُ في أبهائه رَوحَ الزمان الغابر، وكدتُ أقف عند كلّ زاوية، وأستندُ إلى كلّ جدار، وأطوف بكلّ سارية، متأمّلًا متفكّرًا، وشعرتُ به يناجي زوّارَه هامسًا، شاكيًا غربتَه، متحسِّرًا على من أنشؤوه وعمروا جنَباتِه، وعلى من قطّعوا ليلَه تسبيحًا وقرآنا، وسمعت صوت شوقي:

مررتُ بالمسجد المحزونِ أسأله
هل في المصلّى أو المحرابِ مروانُ؟
تغيّر المسجدُ المحزونُ واختلفتْ
على المنابرِ أحرارٌ وعُبدانُ
فلا الأذانُ أذانٌ في منارتِه
إذا تعالى ولا الآذانُ آذانُ

ومن وحي هذا المسجد العظيم أنشأت قطعة قلت فيها:

في الجامع الأمويّ صرتُ يمامةً
ورقاءَ يصفقُ بالحنينِ جناحُها
مذعورةَ اللفتاتِ مائرةَ الهوى
ينسابُ بين الراكعين صُداحُها
لم تلقَ وكرًا يستجيبُ لنَوحِها
فانبتَّ في رهَقِ الظنونِ نُواحُها

ستعودُ أدراجَ الرياحِ لعلها
يومًا تبادلُها الشعورَ رياحُها
لا ليلُها المسعورُ يفني شوقَها
وعساه يضحكُ للصباحِ صباحُها

ومن المواقع التي زرتها المكتبة الوطنية (مكتبة الأسد سلفًا)، وقلعة دمشق وقصر خالد العظم، وأحد الحمامات العتيقة، وجبل قاسيون، وجُلتُ في بعض الحارات القديمة ذات الأزِقّة الضيقة، والبيوت العربية المتجاورة، وتناهتْ إليّ أصوات من فيها، ودنتْ إليّ من الدهر قطعةٌ هاربة، تغري بوصالها وتُدِلُّ بجمالها، شعرتُ أني دخلتُ في كتاب التاريخ، وجُستُ خلال الزمان، وسمعتُ حسيسَ الغابرين، وأصغيتُ إلى قصائدَ وخطبٍ لها دويٌّ لم ينقطعْ إلا بخروجي من تلك الحارات، ريّانَ الأذن والعين والقلب.

وكذلك عرّجتُ على دَير سيدة صيدنايا، وهو بناء قديم جدًّا، يُقدّر بناؤه في القرن السادس الميلادي، ثم زرت بلدة (مَعْلولا) إلى الشمال الشرقي من دمشق بنحو ستين كِيلًا، وهي غريبة الموضع، إذْ بُنيتْ في كنف جبل كأنها لائذةٌ به من صروف الدهر، وجُلّ سكانها نصارى يتكلمون مع العربية بالآرامية التي يُقال: إنها لغة المسيح عليه السلام، وفي الطريق إليها، وقبل أن نصعد الطريق الجبلي المفضي إلى (دَير مار تِقْلا البطريركي)، وكان بصحبتنا الدكتور عادل الفريجات، استوقفتْنا امرأة نَصَفٌ، وطلبتْ إيصالها إلى الدَّير، فركبتْ معنا، وإذا هي من أهل البلدة، ولما دخلنا الدَّير دخلَتْ معنا.

لحظتُ أن الباب الذي يُدخَل منه متطامنٌ جدًّا يَضطرُّ الداخلَ منه إلى أن يحني ظهره، كالراكع، فركعت ودخلت بالجنب؛ لئلا أدخل راكعًا وأنا أواجه الصُّلبان المنصوبة في واجهته، مقتديًا بالقاضي الباقلاني الذي وقف مثل هذا الموقف، وكان يهمّ بالدخول على ملك الروم، فما كان منه إلا أن استدبر الباب ودخل! ولم تكن فيَّ شجاعتُه فأستدبرَ الصُّلبان.

ولما مررت ببهو الدَّير وقفت على بعض الباعة، الذين يبيعون ما يصلح للذكرى، من أنواط وتحف ونحوها، وهممتُ بأن أشتري ما يتيسّر، فلم أجد شيئًا خاليًا من الصلبان، فتركتها.

وبعد جولة في أنحائه قعدنا في إحدى غرفه، نتحدث مع اثنين من القائمين على الدَّير، وبينا نحن كذلك، إذْ أشعل السائق سِجَارة، فالتفتت إليه المرأة التي حملناها معنا، وقالت رافعة صوتَها:

(هيك!) وظننتها ستنهره لأنه يدخّن داخل الدَّير، ولكنها أردفتْ: (هيك بتدخّن وما تباشر!) فأعطاها واحدة!

وفي هذه البلدة الغريبة زرنا كهفًا في شِقّ جبل البلدة، وفيه عين تنزّ من أعلاه، وتقطر طَوال العام، زعموا أنها دموع القديسة تِقْلا، ووجدتُ جماعة يتبركون به من النصارى. وفي نواحيه ما قيل إنه كان غرفًا للرهبان محفورة فيه.

وفي زيارتي هذه أظلّنا عيد الأضحى، فطلبت من السائق أن يمرّ بي فجر العيد لنصلي صلاة العيد في الجامع الأموي، فلما جاء في الموعد، أخبرني أن الطرق إلى الأموي مسدودة والتفتيش فيها مربِك، لأن (سيادة الرئيس) سوف يصلّي العيد فيه!

فذهبنا إلى جامع محيي الدين بن عربي في الصالحية، الذي يسمى أيضًا جامع الخنكار، وهو على ضفاف نهر يزيد أو نُهيره، وفي طريقنا إليه لحظتُ رجالًا يقفون عند رؤوس الشوارع وفي التقاطعات بألبسة مدنية، ولا يفعلون شيئًا سوى التطلع يمينًا وشمالًا، فهمس السائق (مخابرات).

ولما خرجنا من الجامع، قال السائق وقد عرف حبي للاطلاع وشغفي بالتفرّج بما لم أعهد: إن من عادة الناس زيارةَ القبور بعد الصلاة، فما قولك أن نذهب لترى؟ فأومأتُ أنْ نعم، وذهبنا إلى مقبرة قريبة أظنها (مقبرة الشيخ خالد)، وفيها رأيت جمهورًا من الناس يتقاطرون عليها، ومع كل منهم حُزمة آسٍ يضعها على قبر المزُور، والآسُ نبات طويل الاخضرار، قال ابن زيدون:

لا يكن عهدُك وردًا إني عهدي لك آسُ

وإنما يضع الناسُ غصونَ الآس، على ما أظنُّ تأسّيًا بالنبي ﷺ الذي مرّ بقبرين، فأخذ جريدة رطبة فشقَّها نصفين، ثم غرز على كلّ قبرٍ واحدة، وقال: لعلّه يُخفّف عنهما ما لم تَيْبسا. غير أني رأيتهم يبالغون في ذلك، ويحرصون على رشّ القبور وغرز الكثير من الآس في جوانبها، أو رميها على بلاطة القبر، وأنا واصفٌ لا مفتٍ.

وإلى هذه العادة يشير الناس في سورية في دعائهم لمن يحبون، إذْ يقولون: (تُشْكُلْ آسي)، أي أدعو بأن أموت قبلك، فتزور قبري، فتضع عليه الآس. ولعلهم أرادوا بـ(تُشكُل) أن تُضَمَّ شكُول الآس بعضُها إلى بعض.

وكنتُ وعدتُ السائقَ أن أفطرَ معه في بيته صبيحة العيد، رغبةً في التعرّف إلى عادِهم في هذا اليوم، فكان أن عرّج بنا على بيته في حي المهاجرين، ثم ضيّفني إفطارًا شاميًّا حلوًا، وتناهى إلى

سمعي صوتُ الشيخ السُّديس يلقي خطبة العيد من الحرم المكي، فسألت السائق فأخبرني أن أمّه كثيرة الاستماع إلى إذاعة القرآن الكريم التي تُبثّ من الرياض.

ومن طريف ما وقع أني جُلتُ في السوق المجاور لمسجد محيي الدين ابن عربي، ثم صليت فيه المغرب، فجاذبت الحديث رجلًا عليه سيما التديّن، وعَلِم من محاورتي أني أدرس أدب جبري، فقال: لماذا لا تدرس الشيخ ابن عربي؟ فهو أفضل لك، قلت: لماذا؟ قال: (إنه أكثر إشعاعًا).

كانت رحلتي الدمشقية الأولى تجربة بالغة الأثر في نفسي، وفي تكويني العلمي والثقافي، وكان أجلى ما استوقفني فيها ما رأيته في علماء الشام وأدبائها من حبّ نفع الآخرين، إذ كان أحدهم لا يدعُني حتى يصلَني بآخر يفيدني، وهكذا انطلقت من شاكر الفحام في سلسلة من الرجال الكرام حتى انقضت أيام الرحلة، وظلّت أسماؤهم جميعًا مقرونة بالذِّكر الجميل.

وكان من الوفاء لتلك الكوكبة أن دبّجتُ مقالة بعنوان (سلام عليكم يا أهلَ دمشق) سلّمتها لعيسى فتوح، فنشرها في مجلة (بُناة الأجيال) وكان مديرًا لتحريرها، ولكنه غيّر عنوانها فجعله (انطباعات كاتب عن أهل دمشق).

ومن لطائف ما وقع أن حَظِيتُ بالسُّكنى في فندق جيد، متواضع المبنى قديمِه، ولكنه نظيف هادئ ملائم لقدرتي المالية آنذاك، اسمه (فندق الفراديس).

ولما أزمعت الرحيل داعبتُ موظفيه مخاطبًا إياهم بأبيات كتبتها في ورقة وسلمتها لأحدهم، فهَمْهم لما قرأها هَمْهَمةَ المعجَب، وفيها:

إلى (الفراديسِ) جئنا والهوى أَلِقٌ ... وقد حمدنا مُقامًا في (الفراديسِ)
كم فندقٍ تتمنى أن تغادرَه ... مستعجِلًا للذي تلقاه من بُوسِ
لكنّ ذا الفندقَ المِضيافَ خيّل لي ... أني أعيش بداري عيشَ مأنوسِ
أخلاقُ أصحابه عطرٌ وشيمتُهم ... أُنْسٌ فليسوا بأقوام مفاليسِ

وتفاءلتُ بأن هذا الموظّف سيصيح: (يا غلام، اجعل سكنَه عندنا مجانًا). ولكن خانني الفأل هذه المرّة.

كنتُ كتبتُ يومياتي في دمشق، وما زالت مخطوطةً عندي، ومنها استقيت هذه الذكرى التي ذكرتُ فيها بعضَ ما لقيت وأعرضت عن بعض، ومما رقمتُه في آخرها، وأنا في مطار دمشق أتهيّأ للعودة:

"أحسستُ هذا اليوم بشعور غريب تُجاه دمشق، وعزّ عليّ فراقُها، وددت لو أن اللقاءَ طال:

خلقتُ أَلوفًا لو رجعتُ إلى الصبا

لفارقتُ شيبي مُوجَعَ القلبِ باكيا

وداعًا دمشقَ الإسلام، وموطنَ التاريخ، ومستَهَلّ الأمجاد، وداعًا دار معاوية وعبدالملك، إلى لقاء قريب، وقد ردّ الله غربتَك، وأدالك على كلّ عُتُلّ جبّار. فرغت من هذه اليوميات في ١٢ من ذي الحجة سنة ١٤١٢هـ".